

واخضرت خيوط العنكبوت (١)

مصطفى زيات

ثم تابع كبير المهرجين، موضحاً كلامه بحركات من ذراعيه ورأسه وصدره وبطنه وساقيه:

- وبشيء من الهمّة يعوضان ما فقدناه.. ضحك كبير المهرجين فامتلات الخيمة تصفيقاً وهتافاً وقهقهة وصفيراً.

فجأة، دوى في أرجاء الخيمة صوت طلق ناري، فجمد المصنفون وخرس الهاتفون والضاحكون، وساد سكون عميق قصير، ثم عمت الفوضى.

قفز المهرجون الأعوان والتفوا حول كبيرهم وقد زاغت أبصارهم واضطربت حركاتهم وهم يتلفتون بمنة ويسرة باحثين بعيونهم وآذانهم..

ما الخير؟

جميع الحراس - المرافقون لكبير المهرجين، والذين كانوا في الخيمة قبل وصوله - انتشروا في أنحاء الخيمة وهم يصيحون بالمتفرجين - بعصبية ظاهرة - أن لا يبرحوا أماكنهم، وأن يلزموا الهدوء.

اكفهرت وجوه المتفرجين وانفتحت أفواههم وتناولت أعناقهم، وهم في أماكنهم لم يتزحزحوا عنها، يبشون بأذانهم المتوترة وعيونهم الجاحظة..

ما الخير؟

انتصب رئيس الحرس - وعلى جانبيه إثنان من معاونيه - على حافة الحلبة.

.....

تابع كبير المهرجين بعد فترة صمت قصيرة:

- .. لا بد أنكم تتساءلون عن مصير المفقودين؛ أعدكم بأننا سنبحث مشكلتهم وسنصل إلى حل، بل لقد بدأنا البحث فعلاً.

ثم تابع مغيّراً لهجته:

- على كل حال، ليطمئن أهل المفقودين وذووهم، فنحن في هذه الخيمة أسرة واحدة، وجميع أبناء الخيمة إخوة لمن فقدت أخاها، وجميع بناتها أخوات لمن فقد أخته.

وأضاف مبتسماً:

- والخيمة مليئة بالشباب والصبايا، وفقدان زوج أو زوجة لن يوقف مسيرة الحياة. سرت في الخيمة همسات وهمهمات وضحكات خفيفة.

وتابع كبير المهرجين بمرح:

- وقد علمنا أن الصبي المفقود ليس وحيداً، كما علمنا أن الأم ما زالت شابة!! وكذلك زوجها.

تعالت الضحكات من زوايا الخيمة..

(١) وخلال الاستعراض الكبير وقعت حوادث مؤسفة دفعت المسؤول الأول في الخيمة (كبير المهرجين) لإلقاء كلمة بعد انتهاء الاستعراض ليوضح للمتفرجين حقيقة ما حدث. لكن كلمته وما حدث أثناءها يؤكدان أن الاستعراض لا يزال مستمراً... .

همس رئيس الحرس في أذن معاونه فهول منادياً جماعته باتجاه المدخل الرئيسي للخيمة، وأشار إلى معاونه الثاني فأسرع متقدماً جماعته باتجاه الركن الذي يصدر منه الصراخ والعيول .

بقي رئيس الحرس في مكانه يراقب ما يجري على مدرجات الخيمة، ويشرف على أعمال رجاله، ويتفقد - بعينه - بين حين وآخر - كبير المهرجين وأعوانه الذين أحيطوا بدائرة كاملة من الحراس .

هول معاون الثاني عائداً إلى رئيسه، وقف بجانبه وهمس في أذنه بضع كلمات مشيراً إلى مكان الحادث .

أمر رئيس الحرس معاونه بالوقوف في مكانه، واتجه مسرعاً نحو كبير المهرجين مخترباً صفوف الحراس والأعوان، الذين فسحو له الطريق، ثم وقف بجانب كبير المهرجين - الذي حافظ على جموده وقد أحنى رأسه وأرخى يديه إلى جانبه - وهمس في أذنه بضع كلمات .

حرك كبير المهرجين ساقيه مراوحاً في مكانه ببطء شديد، ثم رفع يده - وهو ما يزال مطرباً ومسح بها وجهه مسحاً خفيفاً، ثم فرك جبينه، وراح - بعد أن نزع قبعته بيده الأخرى - يسوي - وهو يرفع رأسه ببطء - شعره الأشيب، وبحركة بطيئة قصيرة من يده أشار إلى رئيس الحرس بالانصراف .

اخترق رئيس الحرس صفوف الأعوان والحراس متجهاً نحو حافة الحلبة حيث وقف معاوناه .

دار بين الثلاثة حديث قصير جداً انصرف على إثره معاونان كل في اتجاه، وهما يعطيان - بالإشارات - التعليمات لأفراد جماعتهما بالعودة إلى أماكنهم، بينما ظل رئيس الحرس منتصباً في مكانه يراقب ويشرف .

أشار كبير المهرجين - بكلتا يديه - لأعوانه بالعودة إلى أماكنهم، كما طلب من حارسه الخاص القيام بعمل ما .

لحظات من الحركة البطيئة عاد فيها الجميع إلى أماكنهم صامتين مطأطي الرؤوس، وكان آخرهم رئيس الحرس .

ساد الخيمة سكون رهيب عميق، وبقي كبير المهرجين وسط الحلبة وحيداً مطرباً حاملاً قبعته بيده .

عاد الحارس الخاص حاملاً كوباً وزجاجة، صب كأساً، شرب كبير المهرجين ببطء قليلاً منها وأعادها إلى حارسه الذي مضى إلى مكانه .

رفع كبير المهرجين رأسه بتمهل، وأخذ صوته يعلو شيئاً فشيئاً قائلاً:

- يؤسفني أن أعلن لكم نبأ موت شاعر الخيمة .

لقد انتحرق قبل قليل .

وتابع بعد توقف قصير:

- لقد بذلنا كل جهد ممكن، ولكن إصابته كانت قاتلة .

وانطلقت همسات المتفرجين، واختلطت:

- هذا ما توقعناه .

- قتله أحد الحراس!

- لم يكن هو المقصود!

- قتله أحد أعوان كبير المهرجين!

- ركب رأسه .

- قتله أحد رجال الساحر!

- كانوا يخافون كلامه .

- قتله أحد رجال البهلوان .

- لم يعجبهم صمته .

- قتله أحد رجال الخيام الأخرى!

- هذا جنون!

- قتله الحب!

«أجل . . . قتله الحب . . . أحب الخيمة حباً لا يوصف .

رحل إلى خيام كثيرة أكبر وأقوى وأجمل . . .

لكنه لم يستطع العيش غريباً فعاد إلى خيمته وعلّق حياته ومستقبله بحياتها ومستقبلها .

لم يكن محباً فحسب، بل كان عاشقاً، ولم يكن يضاهاه حبه للخيمة سوى خوفه وقلقه عليها . . . كان يخاف عليها من هبات الريح تفلح أوتادها أو تقطع حبالها . . . ومن رذاذ المطر وحرارة الشمس، ومن الآخرين، كل الآخرين . لكن أكثر خوفه كان منها عليها! .

تابع كبير المهرجين بعد فترة من الصمت:

- . . . وتخليداً له سنطلق اسمه على أحد مداخل الخيمة . . .

تابع مشيراً بيده:

- . . . على المدخل الذي مات بقربه، وسنعلق صورته

في مكتبة الخيمة، وسنردد قصائده وأغانيه في استعراضاتنا

القادمة . وسنقيم - تكريماً له - مهرجاناً للشعر وسنحقق أمل الشاعر فنجعل شعار المهرجان ورمزه (خيوط العنكبوت الخضراء) فقد ظل يأمل - طوال حياته - أن تخضر خيوط العنكبوت .

تابع كبير المهرجين بعد لحظة صمت :

- والآن أدعوكم إلى الوقوف دقيقة صمت حداداً على روح شاعرنا العظيم .

«أجل كان شاعراً عظيماً . . . وبعينيه اللتين تريان ما لا يرى، رأى الشروخ الداخلية في أعمدة الخيمة، ولاحظ إهتراء جبالها وعطب أوتادها، وصار يرى الخيمة : (كهفاً في زواياها تدب العنكبوت والخفافيش تطير) .

وقد راعه أن يرى أبناء خيمته - بأوهامهم وأحلامهم - يعيشون في متاهات من صنع أيديهم . . . فاستولى عليه القلق . . .

حذر - ألف مرة - من الترقيع والتلميع . . . من انتظار المعجزة، ومن لعنة الزمن . . .

الحُ والْح . . . وكان ليناً حيناً، وعنيفاً حيناً آخر . . . لم يسكت - في حياته - على الإساءة مهما تكن صغيرة، ولا على المسيء أياً كان .

وحين شعر أن الكلمة عاجزة، وحين يش من الآخرين، صمت بعنفوان . . .

وطال صمته . . . ثم رأى أن الموت أهون عليه من أن يرى خيمته مسكونة بكل هذا الزيف، والهوان . . .

كان عظيماً في قوله وفعله وصمته ثم في موته .

كان عظيماً»

أشار كبير المهرجين للجموع بالجلوس ولاحظ أن قبعته ما تزال في يده، فسارع بوضعها على رأسه وتثبيتها بكلتا يديه ثم انتصب دافعاً صدره إلى الأمام، رافعاً رأسه إلى الأعلى والخلف قليلاً .

تابع كبير المهرجين، وقد عادت نبرة صوته إلى ما كانت عليه في بدء خطابه :

- وبعد، الحقيقة، الحقيقة أن فقدان الشاعر ليس كارثة . . .

قطع كبير المهرجين حديثه - إذ لم يطق صبراً على كتمان أمر كان قد أسر في نفسه أن يؤجل بحثه إلى وقت آخر - وصاح بلهجة جادة حازمة :

- أما وجود مسدس داخل الخيمة، ومع شاعرها، ويوم الاستعراض الكبير، فذلك أمر خطير . . .

ثم تابع وهو يرمق رئيس الحرس بنظرة حادة منذرة :

- . . . وسناقشه فيما بعد .

تابع كبير المهرجين - بعد فترة من الصمت - حديثه عن شاعر الخيمة :

- ثم إنه لم يعد شاعراً، فمنذ زمن بعيد لم نسمع له قصيدة أو أغنية .

وأضاف - متظاهراً بأن الواجب يفرض عليه الكلام، معبراً عن ذلك في لهجته :

- في الحقيقة، في الحقيقة كان صمته أفضل من كلامه، فقد كان يائساً كثير الأوهام، يهول ويضخم أصغر الأمور، فقد كان يرى في انقطاع حبل كارثة، وفي انقلاع وتد مصيبة، وفي انحناء عمود طامة كبرى .

وتابع بصوت مرتفع حازم، وبشيء من العصبية،

- كان مريضاً ينشر المرض، ويفسد نفوس الشباب . . .

وصاح بأعلى صوته :

- كان مجنوناً . . .

ثم تابع - ببطء شديد - متسائلاً :

- ألم تشاهدوه مراراً يكلم نفسه، وبصوت مرتفع .

«وانتابني قلق عميق، فانا أكلم نفسي أيضاً، وباستمرار، ولكن بصوت منخفض، بل بدون صوت، وأتخيل عوالم غير معقولة، وأشعر أحياناً بأن الكثير مما أتخيله أقرب إلى العقل من الكثير الذي أشاهده في الواقع .

فهل هذا يعني أنني . . . !؟» .

وأنتهى كبير المهرجين كلامه حول شاعر الخيمة قائلاً :

- وفي كل الأحوال فهو ليس الشاعر الوحيد في الخيمة . . .

وصمت متصنعاً التفكير، ثم أعلن - وهو يشير بيده - تعيين

أحد أعوانه من المهرجين شاعراً جديداً للخيمة، وراح يصفق ضاحكاً.

صفق الجميع، المهرجون والحراس والمتفرجون.

نهض شاعر الخيمة الجديد وراح يقفز راقصاً دائراً حول نفسه، مصفقاً تارة، محيياً تارة أخرى، مرسلأ قبلاته في الهواء لمهنتيه، ثم توجه نحو كبير المهرجين مطأطئ الرأس، ينظر إلى مواقع قدميه، وقد أسبل يديه إلى جانبيه.

مد كبير المهرجين يديه نحو شاعره الذي اندفع بوجهه محاولاً تقبيلهما، لكن كبير المهرجين سحبهما بخفة، ثم ألقى إحداهما على كتف شاعره وراح يمسح بالأخرى رأس الشاعر الذي راح يميل رأسه نحو كتفيه ليمسح بوجهه قفا يد كبير المهرجين، ويرفع رأسه نحو اليد الأخرى - حين تقترب من جبينه - محاولاً تقبيلها، مكرراً ذلك مرات عديدة، تعبيراً عن شكره وامتنانه وسعادته العارمة.

مسح كبير المهرجين يده وجه شاعره من الأعلى إلى الأسفل، ثم ثبتها تحت ذقنه ورفع بها رأس شاعره إلى الأعلى، مما جعل قامته الشاعر تنتصب أيضاً، وراح يحلق

باسماً في وجه الشاعر الذي كان فاغر الفم مغمض العينين في حالة من النشوة الصوفية الغامرة هائماً في عالم آخر.

هز كبير المهرجين شاعره هزة خفيفة أعادته من عالمه، ثم دفعه مشيراً إليه بالعودة إلى مكانه.

تراجع الشاعر - بانحناء كبيرة - سبع خطوات كاملة، ثم شد قامته واستدار دافعاً صدره إلى الأمام رافعاً رأسه يحيي المتفرجين وقد شبك أصابع يديه ورفعهما بقوة، ثم هرول عائداً إلى مكانه.

تابع كبير المهرجين - بعد أن ساد الهدوء التام - حديثه الذي قطعه موت الشاعر:

- أما الفتاة التي عضها الجرد من ساقها فسنرسلها - مع الفتاة التي عضها القرد من ثديها - لتعالج خارج الخيمة . . .

صمت برهة، ثم تابع

- وسيكون لها ساق صناعية حديثة آلية جميلة!

حلب

دار الآداب تقدم

دراسات إسلامية

سلسلة الاسلام الحضاري

- د. صبحي الصالح
- د. أحمد علي
- د. علي حسني الخربوطلي
- د. علي عيسى عثمان
- ترجمة د. عفيف دمشقية
- ترجمة د. عفيف دمشقية.

- الاسلام والمجتمع العصري
- ثورة العبيد في الإسلام
- ١٠ ثورات في الإسلام
- فلسفة الإسلام في الإنسان
- إنسانية الإسلام
- كيف نفهم الإسلام